Archaeological Inscription
Print ISSN:2974-4016
Online ISSN:2974-4024

لَوْحات التَّحْبِيس بعمائر المَغْرب الأقصى خلال العصر المَرِينِيّ (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٢٦٤م)

وَقفَات حوْل مُعْطياتها التاريخيّة والحضاريّة في ضوء بعض النماذج المختارة

د/ رامي ربيع عبد الجواد راشد

مدرس الآثار الإسلامية- جامعة الفيوم- كلية الآثار

rrr00@fayoum.edu.eg

Article information

Pages: 89 -110

Vol: 2 (2024)

Received: 3/2023 **Accepted:** 5/2023

DOI: 10.21608/archin.2023.189837.1001

Abstract:

The remaining material evidence of the civilizations of Islamic countries has a great status, as one of the sources and historical documents that cannot be doubted, being - in and of itself - the best evidence that reflects the nature of life for any country, in its various political, religious, economic, social, cultural, and other fields. From this point of view, this study aims to shed light on what is known idiomatically as the "Endowment panels", which are still preserved by many architectural facilities, remaining from the Marinid era (668- 869AH/ 1269- 1264AD), which represented an important stage in the History of the Far Maghreb, with the intention of highlighting the historical importance of the texts of the writings of those endowment inscriptions, whether they pertain to the ruling authority, or the general public, and to what extent these inscriptions reflect the nature of that era, with regard to the religious, social, administrative, economic, urban, and other aspects of civilization.

الملخص:

للشواهد المادية الباقية من حضارات دول الإسلام مكانة كبرى، كأحد المصادر والوثائق التاريخية التي لا يتطرق إليها الشك، كونها- في ذاتها- خير دليل يعكس طبيعة الحياة لأي مِصر من الأمصار، في شتى ميادينها السياسية، والدينية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وغيرها. من ذلك المنطلق، تهدف هذه الدراسة إلى إلقاء الضوء على ما يُعرف اصطلاحًا بـ "لَوْحات التَّحْبِيس"، التي لا تزال تحتفظ بها عديد من المنشئات المعمارية، الباقية من العصر المَرِينِيّ (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٢٦٤م)، الذي كان يُمثِّل مرحلة مهمة في تاريخ بلاد المغرب الأقصى، قَصْد إبراز الأهمية التاريخية لنصوص كتابات تلك النقائش الوقفية، سواء ما يَخُص السُّلْطة الحاكمة، أو العامّة من الرّعيّة، وإلى أي مدى تعكس تلك النقوش طبيعة ذلك العصر، فيما يتعلق بالنواحي الدينية، الاجتماعية، الإدارية، الاقتصادية، العمرانية، وغير ذلك من الجوانب الحضارية.

Keywords:

Waqf inscriptions, Architecture, Almaghrib al'aqsaa, Banu Marin.

الكلمات المفتاحية:

النقوش الوقفية، عمارة، المغرب الأقصى، بنو مَرِين

المقدمة:

شهدت بلاد المغرب الأقصى خلال العصر المَرِينِيّ (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٢٦٤م)، عدّة تحولات مهمّة في شتى المناحي الحضارية، وكان من أهمها الجانب العمراني، فلا تزال حواضر المغرب الأقصى تزخر بعديد من المنشئات المعمارية المتنوعة، تعكس كثيرًا من مظاهر التقدم والتطور في مجال العمران والبناء، التي كان أحد أسبابها الرئيسة، الحضور القوي للأندلسيين الوافدين إلى بلاد المغرب، خلال ذلك العصر.

ولمّا كانت حاضرة فاس هي دار المُلْك لحكّام العصر المَرِينِيّ، فقد انعكس أثر ذلك جليًا في النهضة العمرانية الكبرى التي شهدتها تلك المدينة، على يدي أولئك السلاطين من بني مَرِين، حيث أسس الأمير أبو

يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦– ٦٨٥هـ/ ١٢٥٨– ١٢٨٦م)، مدينة مَلَكية جديدة إلى الجهة الغربية من المدينة العتيقة، وهي المعروفة في المصادر التاريخية بـ "فاس الجديد"، أو "المدينة البيضاء"[١]، وفيها تم تأسيس قصر المُلْك في جوار جامعها الأعظم، إلى غير ذلك من المنشئات العمرانية، الدينية، والمدنية، والدفاعية، التي همّت هذه المدينة طوال ذلك العصر، حسبما لا يزال قائمًا إلى الوقت الحاضر.

لم يكن تأسيس تلك المدينة المَلَكية المُحْدَثَة، ليَحُول دون اهتمام الحكّام المَرِينِيّين بعمران المدينة العتيقة "فاس الإدريسية"، بكل من عُدوتيها "القُرَوِيّين، الأندلسيّين"، حيث تنوعت وتعددت منشئاتهم داخل تلك المدينة الأم، التي كان على قائمتها المدراس العِلْمية، في مجاورة المسجدين الجامعين بكل من العُدوتين، وهو ما يُبرهن على ازدياد النشاط العِلْمي خلال هذه المرحلة.

كان من بين السِّمات الحضارية المهمة، التي جسدتها منشئات العصر المَرِينِيّ، هو ما يُعرف بلَوْحات التَّحْبِيس (الوَقْف)، وهي إحدى الوسائل– الإدارية– التي حظيت بانتشار كبير، حسبما نقف عليه– تحديدًا– في عديد من مساجد ومدارس ذلك العصر، حفاظًا على الأوقاف ودعمًا لمؤسستها، من أجل ضمان بقاء، واستمرار أداء تلك المنشئات الدينية لأدوارها الوظيفية، بما يوضح العلاقة الوثيقة بين هذه المنشئات الدينية وتلك اللوحات الحُبُسِيّة، وارتباط كل منهما بالآخر، حسبما يأتي توضيحه لاحقًا.

أمّا عن ماهية هذه اللوحات الحُبُسِيّة، فهي ألواح رخامية، يُسجَّل عليها بعض الإفادات الخاصة بالأوقاف المُحبَّسة على منشأة بعينها، مع تحديد عيون هذه الأحباس، وذكرها تفصيلًا في تلك النقائش الرخامية، التي يتم وضعها بأحد المواضع البارزة داخل المنشأة، تأكيدًا على أهمية هذه الأوقاف، وحُرْمَة التَّعدي عليها بتعاقب الأزمان.

ليس هذا فحسب، بل تُعد تلك اللوحات الحُبُسِيّة سِجلًّا تاريخيًا حافلًا، يعكس عديدًا من المظاهر الحضارية خلال عهد كل حاكم من الحكّام، بما تشتمل عليه من ألقاب ونعوت، وخُطط إدارية ودينية، وطبيعة معالم عمرانية ومنشئات، وأسماء مواقع وأحياء وأزقة ودروب، وقيمة سِكّة ونَقْد، إلى غير ذلك من المعطيات الحضارية المهمة، التي من خلالها يمكن إضافة الجديد لتاريخ أولئك الحكّام، في ضوء هذه الوثائق والشواهد المادية، التي لا يتطرقها أدنى شك.

حقيقة الأمر، هو أنه لا نجد لوحات التَّحْبِيس هذه في أي مُنشئات سابقة بعمائر المغرب الأقصى قبل العصر المَرِينِيّ (٦٦٨– ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩– ١٢٦٤م)، وفيما يبدو، فإن أقدم نماذجها الباقية خلال هذا العصر، لوحة التَّحْبِيس الخاصة بالمدرسة المعروفة بـ "مدرسة الصّهريج"، بعُدوة الأندلسيين من فاس البالي[٢]، في فترة ولاية الأمير أبي الحَسَن علي بن عثمان، عام (٧٢٣هـ/ ١٣٢٣م)، وإذا ما كانت هذه اللوحة ترجع إلى أبي

---

[١] ابن أبي زرع: ***الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس***،المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م. ص٤٢٠.، ابن خلدون: ***كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر***، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م. جـ٧، ص٢٣٠– ٢٣١.

[٢] عن نص هذه اللوحة التحبيسية، انظر:

Bel (M.Alfred): Inscriptions Arabes de Fès, Paris, 1919, PP.222-224.

الحسن، مدة ولايته للعهد في حياة أبيه السلطان أبي سعيد عثمان، فإن هذا مما يَحمل على الاعتقاد بأن ظهور لوحات التّحْبِيس بالمغرب المَرِينِيّ كان سابقًا على ذلك التاريخ، إما خلال عهد أبيه (٧١٠– ٧٣١هـ/ ١٣١٠– ١٣٣٠م)، أو قبل هذا في عهد كل من الأمير أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦– ٦٨٥هـ/ ١٢٥٨– ١٢٨٦م)، وخَلَفِه أبي يعقوب يوسف بن يعقوب (٦٨٥– ٧٠٦هـ/ ١٢٨٦– ١٣٠٦م)، إذ اتسم عهد أولئك الثلاثة برخاء وانتعاش اقتصادي، صاحبه نمو ونشاط عمراني واسع، بما ترتب عليه– دون شك– اهتمام كبير بالوقف ومؤسسته، وإذا ما وضعنا في الحسبان– من جانب آخر– ظهور هذه الوقفيات بحواضر المغرب الأوسط، في فترة سابقة لولاية عهد أبي الحسن المَرِينِيّ[١].

من ناحية أخرى، فإن استعمال هذه اللوحات الحُبُسِيّة شهد تداولًا ملحوظًا فيما تلى خلال هذا العصر المَرِينِيّ تحديدًا، حتى في مرحلته الأخيرة التي اتسمت بالتراجع والتقهقر الحضاري، وهو ما نقف عليه في كثير من المنشئات الدينية بالمقام الأول، إلى غيرها من المنشئات الخَدَمِيّة، فمنها على سبيل المثال، لوحة تَحْبِيس مدرسة العطّارين بفاس البالي، من عهد أبي سعيد عثمان بن يعقوب (٧٢٥هـ/ ١٣٢٥م)، لوحة (١)، لوحة تحبيس مسجد أبي الحسن بفاس البالي، من عهد أبي الحسن علي بن عثمان (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، لوحة (٢)، لوحة تحبيس مدرسة مدينة سَلَا، من عهد أبي الحسن أيضًا (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م)، لوحة (٣)، لوحتا تحبيس زاوية وبيمارَسْتان مدينة تازَة، من عهد أبي عِنان فارس بن علي (٧٥٤هـ/ ١٣٥٣م)، لوحتان (٤، ٥)، لوحة تحبيس المدرسة البُوعِنانيّة بفاس البالي، من عهد أبي عِنان فارس كذلك (٧٥٦هـ/ ١٣٥٥م)، لوحة (٦)، لوحة تحبيس مَجْلِس الأُسْبوع بالجامع الكبير في فاس الجديد، من عهد أبي فارس بن أحمد بن أبي سالم (٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م)، لوحة (٧)، وأخيرًا، لوحة تحبيس مسجد لَلّا غريبة، من أعمال الحاجب عبد الله الطَّرِفِيّ (٨١٠هـ/ ١٤٠٨م)[٢]، لوحة (٨). ونظرًا لتعدد تلك اللوحات الحُبُسِيّة، مع تنوع المنشئات التي أُلحقت بها، يُمكن الاقتصار هنا على دراسة بعضها، رَوْم رَصد بعض المعطيات التاريخية، والسّمات الحضارية العامة لبلاد المغرب الأقصى، خلال عهد حكّام بني مَرِين، على النحو الآتي.

---

[١] إذ نجد أقدم نموذج لتلك اللوحات الحبسية بمسجد سيدي بلحسن في حاضرة تِلِمْسان من المغرب الأوسط (٦٩٦هـ/ ١٢٩٦م)، وعن نص هذه الوقفية، انظر: الشرقي (رزقي): ***الكتابات الوقفية بالمعالم الدينية بتلمسان مصدر جديد لتوثيق المسح العقاري بالمدينة وضواحيها***، مجلة الثقافة، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد١٦، أكتوبر ٢٠٠٧م. ص٨٥.

[٢] إلى جانب هذه اللوحات التحبيسية فهناك أيضًا نماذج أخرى، منها لوحة تحبيس مدرسة دار المَخْزَن بفاس الجديد، لوحة تحبيس المدرسة المصباحية بفاس البالي، وكلاهما من عهد أبي الحسن علي، هذا بالإضافة إلى لوحة تحبيس الحمّام الجديد برباط الفتح، من عهد أبي عِنان فارس، وعن نصوص هذه الوقفيات، انظر: إسماعيل (عثمان): **تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى**، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط١، ١٩٩٣م، ص٤٥٥.

Bel: Inscriptions Arabes. PP.158-160, 256-257.

١- لوحة تحبيس مسجد أبي الحسن بفاس البالي.

يُعد عهد السلطان أبي الحسن علي ابن أبي سعيد عثمان (٧٣١- ٧٤٩هـ/ ١٣٣٠- ١٣٤٨م)، من أزهى الفترات التاريخية لبلاد المغرب الأقصى خلال العصر المَرِينِيّ[١]، ولعل من بين المؤشرات الدالة على ذلك، كثرة المنشئات والعمائر المتباينة، المنسوبة إلى عهده، بعديد من الحواضر الكبرى، مثل: فاس، مُرَّاكُش، الرِّباط، مِكْناس، سَلَا، سَبْتَة، جَبَل طارق، وغيرها، وكان من بينها هذا المسجد، المعروف باسمه "مسجد أبي الحسن"، بالطالعة الصُّغرى من فاس البالي، حيث يتسم ذلك المسجد- الصغير- ببعض الخصائص المعمارية والفنية المهمة، هذا إلى جانب لوحة التَّحْبِيس الخاصة به، ونص ما جاء فيها: (بسم الله الرحمن/ الرحيم صلى الله على/ سيدنا ومولانا محمد وعلى/ آله وصحبه وسلم تسليما هذا إعلام/ بتحبيس احترامه مؤكد الوجوب/ وتعظيمه من تعظيم حرمات الله التي هي/ من تقوى القلوب أمضى تسبيله ونهج دليله/ مولانا أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في/ سبيل رب العلمين [كذا][٢] أبو الحسن ابن مولانا/ أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل/ رب العلمين [كذا] أبي سعيد ابن مولانا أمير المسلمين/ وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العلمين [كذا]/ أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق حقق الله/ لهم بيسر الآمال ودخر لهم أجر هذا العمل/ الصالح عند انقطاع الأعمال على هذا المسجد/ المؤسس بناؤه على تقوى ورضوان من الله/ المحبس لذكر الله وإقام الصلاة في جميع/ الحوانيت السبعة المصطفة بجوفيّه والحَمّام/ الذي بحَوْمة قِبليّه وجعلوا الكبرى من/ المِصْرِيتين المحملتين على الحوانيت المذكورة/ وقفا على سكنى إمامه والصغرا [كذا] على مؤذنه/ إمضا [كذا] يستمر بحول الله دوامه ويستقر على ...[٣]/ الأحباس احترامه وكل ذالك [كذا] فى شهر/ رمضان من عام اثنين وأربعين وسبعمائة). لوحة (٢).

التعليق على النص:

من خلال النص السابق يُمكن الوقوف على بعض المعطيات التاريخية والحضارية المهمة، منها التأكيد على أهمية الأوقاف، وحُرْمة التّعدي عليها، وهذا ما وَرَد التصريح به في بداية النص، بقوله: (هذا إعلام بتحبيس احترامه مؤكد الوجوب وتعظيمه من تعظيم حرمات الله التي هي من تقوى القلوب). الأمر الذي يتبين من خلاله ما كان للوقف من مكانة دينية شرعية، ترعاها السُّلطة الحاكمة، وتسهر على حمايتها وصَوْنها من النهب والضياع، ومن ناحية أخرى، فقد كان لأولئك الحكّام دَوْر حيوي في انعاش الوقف وازدهاره، حسبما يتضح

---

[١] ترجمته وافية، انظر: (التلمساني) محمد ابن مرزوق: ***المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الإمام أبي الحسن***، دار الأمان، الرباط، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م، ص١٠٩- ٣٩٠.

[٢] سوف تتكرر هذه الكلمة: (كذا) كثيرًا، عقب بعض الألفاظ الواردة بنصوص تلك اللوحات الحُبُسِيّة الآتي دراستها أعلاه، للتنبيه على أن هذا ليس خطأ إملائيًا، وقع سهوًا من الباحث، وإنما قمت بكتابة تلك النصوص كما هي مُثبتة بألفاظها تلك في هذه الألواح، حسبما كان شائعًا في النطق أو الكتابة، خلال ذلك العصر، والتي تمتد بجذورها إلى القرنين الثاني والثالث الهجريين (الثامن والتاسع الميلاديين) على أقل تقدير، حسبما تعكسه بعض شواهد القبور الأندلسية، المحفوظة في متحف الآثار بقرطبة، متحف الآثار الوطني في مدريد، فضلًا عن بعض الإفادات التاريخية بالمصادر الأندلسية والمغربية على السواء، وقد أشرت- أعلاه- إلى أهمية تلك اللوحات الحُبُسِيّة في دراسة لهجات أهل المغرب الأقصى خلال ذلك العصر المريني، الأمر الذي يحتاج- في واقع الأمر- إلى دارسة مستقلة، مما جعلني أُحْجِم- بعدما كنت عازمًا- عن التطرق إليها خلال دراستي هذه.

[٣] مقدار كلمة لم أتمكن من قراءتها على وجه التحقيق.

في النص بقوله: (أمضى تسبيله ونهج دليله مولانا أمير المسلمين،...، أبو الحسن). وهذا مما يعكس الجانب الإحساني، والعمل الخيري لدى هؤلاء السلاطين، ابتغاء الثواب الجزيل، والفضل العظيم من رب العالمين، كما ورد في النص بقوله: (ودَخَرَ لهم أجر هذا العمل الصالح عند انقطاع الأعمال).

أيضًا يتضح من نص الوقفية، أسباب ذلك الوقف، وماهية المنشأة المُحَبَّس عليها، وهذا في قوله: (على هذا المسجد المؤسس بناؤه على تقوى ورضوان من الله المُحَبَّس لِذِكْر الله وإقام الصلاة). بما يُفيد أهمية الوقف في ضمان استمرار الدور الوظيفي لتلك المساجد مع تعاقب الأزمان[١]. أما عن عيون هذه الأحباس المُوَقَّفة على ذلك المسجد، فهي: (جميع الحوانيت السبعة المُصطفَّة بجَوْفِيِّه والحَمَّام الذي بحَوْمَة قِبْلِيِّه). وتلك الحوانيت المشار إليها في النص لا تزال قائمة، تتقدم الواجهة الشمالية للمسجد، أما الحَمّام فقد اندثر ولا وجود في الوقت الحاضر[٢]، الأمر الذي يُسهم في رَصْد معالم الخريطة العمرانية للمدينة العتيقة خلال العصر المَرِينِيّ، ومقارنتها بما تلاه، ومن جهة أخرى، يتضح التنوع في عيون الأحباس المُوَقَّفة على المنشئات، وأنها لم تكن من جنس واحد، وغالبًا ما كانت تلك الأوقاف بداخل المدينة، قريبة أو في جوار المنشأة المُحَبّس عليها، لمَا يترتب على هذا من ضمان بقاء عيون تلك الأحباس، صونًا لها من النهب أو الضياع مع تعاقب الأيام.

أفادت تلك الوقفية أيضًا إلى دَوْر مهم من الأدوار الوظيفية الدينية، التي كانت تُسهم فيها تلك الأوقاف، حسبما يستفاد من النص بقوله: (وجعلوا الكبرى من المِصْرِيّتين المحملتين على الحوانيت المذكورة وقفًا على سُكْنى إمامه والصغرى على مؤذنه). بما يعني أنه كان يتم– في كثير من الأحيان– الإنفاق على سُكنى، وأجور أئمة المساجد ومؤذنيها، من أموال هذه الأحباس[٣]، كما يتبين أن مَحَل سُكنى أولئك الأئمة والمؤذنين كان في جوار تلك المؤسسات الدينية، تيسيرًا لمهامهم وأشغالهم الوظيفية[٤].

يمكن الإشارة كذلك، في ضوء نص لوحة تحبيس مسجد أبي الحسن بفاس البالي، إلى الهيئة الإدارية القائمة على تسيير شئون الأوقاف، ألا وهي: "مؤسسة الأحْبَاس"، أو "وزارة الأوقاف"، في اصطلاحنا الحاضر، حسبما نجده تصريحًا بقوله: (إمضاءً يستمر بحول الله دوامه ويستقر على،...، الأحباس احترامه). بما يُفيد أنه كان ثمّة مؤسسة إدارية خاصة بالأوقاف، مَنُوطة بكل ما يتعلق بها من حَصْر، وتسجيل، وصَرْف في أوجه

---

[١] للمزيد عن دور الوقف وأهميته في بناء المساجد ودعم أدوارها الوظيفية الدينية، انظر: الونشريسي: *المعيار المعرب*. جـ٧، ص١٢، ٤٤، ٥١، ٥٦، ٦٢، ٦٤، ٦٩، ٧٨، ٨٥، ٨٩، ٩١، ٩٢، ٩٤، ١٠١، ١١٢، ١١٩، ١٢١، ١٢٦، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٤، ١٣٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٦٣، ١٦٤، ١٧٠، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ٢٠٠، ٢٠١، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢١٥، ٢٢٥، ٢٣١، ٢٣٧.

[٢] هذا اعتمادًا على الزيارات الميدانية المتكررة لمدينة فاس، أثناء إعداد أطروحة الدكتوراة، حول مساجد هذه الحاضرة في العصر المريني، فيما بين عامي (٢٠١٣– ٢٠١٥م).

[٣] انظر: الونشريسي: **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، جـ٧، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ، ص٥– ٦، ٤١– ٤٢، ١٢٦.

[٤] انظر: النميري: ***فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب***، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م، ص٢٠٨.

مصارفها، الأمر الذي يدلل على أهميتها البالغة، حيث كان من أهم ثمراتها، استمرار بقاء ذلك الرصيد الهائل من المنجزات العمرانية الشامخة، الدالة على الازدهار والتقدم الحضاري لدولة الإسلام[١].

أخيرًا، فإن لوحة تحبيس مسجد أبي الحسن، تُعد النقش التسجيلي الوحيد الذي يؤرخ لبناء هذا المسجد، ونسبته للسلطان أبي الحسن علي، عام (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) تحديدًا، وهو الأمر الذي لا تدل عليه أية شواهد أخرى باقية بالمسجد، كما لم تشر إليه المصادر التاريخية المعاصرة صراحة[٢]، وبهذا تتضح الأهمية التاريخية الكبرى لمثل هذه اللوحات الحُبُسِيّة، كونها في ذاتها نقائش تسجيلية، تُؤرّخ لتاريخ بناء بعض المنشئات والعمائر، التي أغفلتها المصادر التاريخية التقليدية.

٢- لوحتا تحبيس زاوية وبيمارستان مدينة تازة

تميّز العصر المَرِينِيّ بكثرة منشئات الرعاية الاجتماعية، كالسّقايات، الحمّامات، البيمارَسْتانات، الزوايا، وتلك الأخيرة، كانت خلال ذلك العصر بمثابة دُورٍ للضيافة، يَحتل بها الفقراء، والمتصوفة، وعابري السبيل، وغيرهم من المَعْوُزِيين وأصحاب الحاجَات، وإلى عهد أبي عِنان (٧٤٩- ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨- ١٣٥٧م)، ترجع عِدّة زوايا، أشارت إليها المصادر التاريخية، منها الزاوية المتوكلية في فاس الجديد[٣]، وزاوية النُّسَّاك في مدينة سَلَا[٤].

تجدر الإشارة إلى أنه ثمّة لوحتان تَحْبِيس، مغروزتان بأحد جدران الجامع الكبير في مدينة تازَة، إحداهما تخص أحباس زاوية، والأخرى تتعلق بأحباس بيمارَسْتان، حيث تُقرأ لوحة تحبيس الزاوية بما نصه: (الحمد لله وحده مما حبسه مولانا المجاهد/ الإمام المتوكل على الله أمير/ المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين/ أبو عِنان ابن مولانا أمير المسلمين/ المجاهد في سبيل رب العالمين أبي/ الحسن ابن مولانا أمير المسلمين/ المجاهد في سبيل رب العالمين أبي/ سعيد ابن مولانا أمير المسلمين/ المجاهد في سبيل رب العالمين أبي/ يوسف ابن عبد الحق تَقَبَّل الله/ عَمَلَه وبلَّغه في نَصْر الإسلام أَمَلَه/ الرِّياض الكبير بداخل تازِي/ والجِنَان (...)/ والجنَّة المعروفة بتط/ (...) ومَدْشَر ميمونة/ على الزاوية (...) خارج/ تازا وذالك [كذا] عام أربعة/ وخمسين وسبعمائة). لوحة (٤).

أما لوحة تحبيس البيمارَسْتان، فتقرأ كتاباتها بما نصه: (الحمد لله وحده مما حبَّسَه مولانا/ الخليفة الإمام المتوكل على/ الله أمير المؤمنين المجاهد/ في سبيل رب العالمين أبو/ عِنان ابن مولانا أمير المسلمين/ المجاهد في سبيل رب العالمين/ أبي الحسن ابن مولانا أمير المسلمين/ المجاهد في سبيل رب العالمين أبي/ سعيد ابن مولانا أمير المسلمين/ المجاهد في سبيل رب العالمين/ أبي يوسف ابن عبد الحق تقبَّل/ الله عَمَلَه وبَلَّغَه في

---

[١] ولعل في هذا دعوة إصلاحية تجديدية للاهتمام- في بلادنا العربية الإسلامية- بالوقف ومؤسسته بمفهومه الحضاري الشامل، كونه في أصله عطاء، ومحض نفع للآخر دون مقابل، في ظل مرحلة حَرِجَة يعيشها العالم اليوم، بعدما طغت النظرة المادية والأنانية، على حساب الإنسانية.

[٢] ابن مرزوق: ***المسند الصحيح الحسن***، ص٣٢٧.

[٣] النميري: ***فيض العباب***، ص٢٠٦.

[٤] ابن الخطيب: ***معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار***، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م، ص١٥٢.

نَصْر الإسلام/ أَمَلَه رَبْع ابن الرَّبِيب بداخل/ تازا والأرْحَا [كذا] بخارجها (...)/ له على المَارَسْتان بداخلها/ وذالك [كذا] عام أربعة وخمسين/ وسبعمائة عرَّفنا الله خيره). لوحة (٥).

التعليق على النصين:

الواقع أن المصادر التاريخية لا تُعطي إفادات ضافية، حول طبيعة النمو العمراني لمدينة تازَة خلال العصر المَرِينِيّ (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٤٦٤م)، اللهم إلا بعض الإشارات حول بناء قصر تازَة[١]، وقصبتها[٢]، خلال عهد الأمير أبي يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (٦٨٥- ٧٠٦هـ/ ١٢٨٦- ١٣٠٦م)، الذي قام كذلك بأعمال التوسعة الكبرى لجامع المدينة الأعظم، حسبما يُستدل عليه من النقش التسجيلي لتلك الزيادة[٣]. وفي سياق حديثه عن مدينة تازَة، أشار الحسن الوَزَّان (ق ١٠هـ/ ١٦م)، إلى أن بها جامعًا أكبر من جامع مدينة فاس، وثلاث مدارس، وحمّامات وفنادق كثيرة[٤]، دون الإشارة إلى كل من الزاوية والبيمارَسْتان.

بناءً على هذا، تتضح الأهمية التاريخية الكبرى لهاتين اللوحتين التحبيسيّتين، بحيث يُمكن احتسابهما الشاهدان المادّيان- الوحيدان- الباقيان، اللذان يؤكدان على بناء مثل هذه المنشئات الخَدَمِيّة في حاضرة تازَة خلال العصر المَرِينِيّ، ومن جانب آخر، فإن كلًا من زاوية وبيمارَسْتان مدينة تازَة لم يُعمِّرا طويلًا، حيث لم يُشر إليهما الوَزَّان ضمن حديثه عن مآثر المدينة، بما يعني أنهما دُرِسا مع نهايات العصر المَرِينِيّ أو خلال العصر الوَطَّاسِيّ اللاحق، نتيجة الانهيار العام في الأحوال السياسية، والاقتصادية، خلال هاتين المرحلتين، الأمر الذي ترتب عليه نَقْل هاتين اللوحتين- لاحقًا- إلى الجامع الأعظم من تلك الحاضرة.

٣- لوحة تحبيس المدرسة البُوعِنانيّة بفاس البالي

كانت المدارس العِلْمية من بين العمائر التي أَوْلَاها حكّام بني مَرِين مزيدًا من الاهتمام، دفعًا لحركة النشاط العِلْمي والفكري بحواضر المغرب الأقصى، وترجع أغلب المدارس الباقية من ذلك العصر، إلى عهد أبي الحسن علي (٧٣١- ٧٤٩هـ/١٣٣٠- ١٣٤٨م)، بينما تعود المدرسة البُوعِنانِيّة في حاضرة فاس إلى عهد خَلَفِه السلطان أبي عِنان فارس (٧٤٩- ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨- ١٣٥٧م)، الذي كان بمثابة قمّة النضج والازدهار للعمارة والفنون خلال العصر المَرِينِيّ، حسبما تدل عليه عمارة، وزخارف، ونقوش تلك المدرسة البديعة.

تقع هذه المدرسة أعلى الطالعة الكبرى من عُدوة القُرَوِيّين بفاس الإدريسية، وقد اختُصت- دون سائر المدارس المَرِينِيّة الأخرى- بإلحاق مسجد جامع بها، حسبما أشارت إليه كتابات لوحة تحبيسها، التي نقرأ فيها ما نصه: (بسم الله الرحمن الرحيم/ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وعلى آله/ أمر بإنشا هاذه [كذا] المدرسة المباركة السَّنِيّة المُسمّاة بالمتوكلية/ المؤسسة على تقوا [كذا] من الله ورضوان المُعدّة لتدريس العِلْم وإقرا القران [كذا]/ المُفَضّلة بإقامة فَرْض الجُمُعة المخصوصة بالمرافق الشاملة والمحاسن المستبدَعة/ مولانا الخليفة الإمام

---

[١] ابن خلدون: ***العبر***. جـ٧، ص٢٦٠.

[٢] ابن أبي زرع: ***الأنيس المطرب***، ص٥٢٤، وانظر أيضًا: ابن خلدون: ***العبر***. جـ٧، ص٢٨٦- ٢٨٧.

[٣] راشد (رامي): ***خصائص الفن المريني في ضوء زخارف ونقوش الجامع الكبير بمدينة تازة ٦٩٠ ٧٩١هـ/ ١٢٩٠- ١٣٩١م***، مجلة "البحوث والدراسات الأثرية "، مركز البحوث والدراسات الأثرية، جامعة المنيا، جمهورية مصر العربية، العدد٥، سبتمبر ٢٠١٩م. ص٢١٩.

[٤] الوزان (الحسن): ***وصف أفريقيا***، جـ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م. ، ص٣٥٤.

حسنة الأيام وناصر الإسلام المجاهد في سبيل الله المظفر/ بمعونة الله العالِم العامل الصالح العادل القانت الأواب صاحب الحرب والمحراب/ أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين المتوكل على الله أبو عنان/ فارس ابن مولانا الإمام العادل الفاضل الكامل الأروع الأورع/ الأخشى لله الأخشع أمير المسلمين المجاهد في سبيل رب العالمين/ أبي الحسن ابن مولانا الإمام الظاهر المؤيد الطاهر جواد الأجواد/ وأسد الآساد أمير المسلمين وناصر الدين المجاهد في سبيل رب العالمين/ أبي سعيد ابن مولانا الإمام العابد القانت الزاهد الذي أعز الإسلام جهاده/ المبرور وكَرُم في سبيل الله أثر اجتهاده المأثور أمير المسلمين وناصر الدين/ المجاهد في سبيل رب العالمين أبي يوسف بن عبد الحق وصل الله تعالى/ لمقامه العلي أسباب التأييد والتمكين وسنا له النصر العزيز والفتح المبين/ وجعل الخلافة كلمة باقية في عقبه إلى يوم الدين وجزاه عن الإسلام/ والمسلمين أفضل جزا [كذا] المحسنين قصد أيده الله تعالى ببنائها وجه الله تعلى [كذا]/ في إحيا [كذا] رسوم العلوم وتجديد العناية بالمنقول والمفهوم وابتغا [كذا]/ حسن الثواب على تخليد أعمال البر وإجرا [كذا] الصدقات الباقية بقا [كذا] الدهر والله/ تعالى ولي المثوبة ومجزل الأجر وحبس أيده الله على هاذه [كذا] المدرسة إرفاقًا لطلبة العلم/ وإرفادًا وإعانة لهم على طلبه وإسعادًا جميع ما ينقسم من الرباع وذالك [كذا] الحمّام المعروف/ بحمّام الشَّطَّارة والدُّوَيْرة المتصلة به من حقوقه بأعلى حلق النّعام قِبليّ المدرسة المباركة/ والرّحا [كذا] المتصلة بالمدرسة من جهة الشرق والرّحا [كذا] الثانية المعروفة برحا [كذا] الحطَّا/ بين التي بها مَعِدَة الما [كذا] المجلوب منها الما [كذا] إلى المدرسة ودار الوضو [كذا] بها والفرن/ الذي بالزنقة الفاصلة بينه وبين المدرسة والرواان[1] الإثنان أحدهما بالزنقة/ جنب الفُرن وتتصل بالحوانيت الجُدُد المُحَبَّسة على المدرسة والآخر بزنقة ابن نوّار/ وتتصل بدار الوضو [كذا] المذكورة وأربع وسبعون حانوتًا كلها بالقرب من المدرسة/ بحقوق ذالك [كذا] كله ومنافعه أجمعها ليصرف فوائده في إصلاح المدرسة ومُرتَّبات/ المُقرئين والطَّلبت [كذا] والقَوَمَة بها تحبيسًا تامًا ثابت الحكم لا تبديل لرسمه إن شا [كذا] الله/ تعالى وكان ابتدا [كذا] بنائها في الثامن والعشرين لشهر رمضان المعظم عام إحدا [كذا]/ وخمسين وسبعمائة والفراغ منه في آخر شعبان المكرم عام ستة وخمسين وسبعماية [كذا]/ وكان بناؤها على يدي الناظر في الحبس بحضرة فاس حرسها الله تعالى/ أبي الحسين بن أحمد بن الأشقر وفقه الله تعالى والحمد لله كثيرا/ وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد رسوله الكريم وعلى آله وسلم). لوحة (٦).

التعليق على النص:

تتميز لوحة التحبيس هذه، الخاصة بالمدرسة البُوعِنانيّة، بمزيد من التفصيل، ووفرة في المعلومات، الأمر الذي يساعد على رصد عديد من المعطيات التاريخية والحضارية، سواء فيما يتعلق بالمدرسة ذاتها، أو ما يتعلق بمؤسسها، أو فيما يخص عيون الأحباس المُوقَّفة عليها، وكذلك معالم الخريطة العمرانية لمدينة فاس، فضلًا عن مؤسسة الأحباس وناظِرها، واللهْجة المُستعملة مُشافهةً وكتابةً خلال ذلك العصر.

أفادت لوحة التحبيس بالاسم الذي أُطلق على هذه المدرسة وقت تأسيسها، وذلك في قوله: (أمر بإنشاء هذه المدرسة المباركة السَّنِيّة المُسمَّاة بالمُتَوَكِّلِيّة). وتلك التسمية لا تشتهر به في الوقت الحاضر، بل تُعرف

[1] كذا كما هو بالنقش، والمراد (الرُّواءان)، تثنية أَرْوَى، ويقصد به في العامية المغربية اصطبل الدّوابّ.

باسم "المدرسة البُوعِنانيّة"، نسبة إلى كُنية مؤسسها "أبي عِنان"[١]، أما تسميتها بـ "المُتَوَكِّلِيّة"، فنسبة إلى لَقَبه الذي اشتُهر به، وهو "المتوكل على الله"[٢]، وهذا اللقب هو الذي نجده في كتابات لوحة التحبيس هذه، وكذلك ضمن النقوش التسجيلية بتيجان أعمدة بيت الصلاة في الجامع المُلحق بالجهة الجنوبية من المدرسة المذكورة[٣]، وهذا يحمل على القول بأن هذه المدرسة كانت تُعرف خلال العصر المَرِينِيّ (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٢٦٤م)، بالمدرسة "المُتَوَكِّلِيّة"[٤]، حسبما ورد التصريح به في لوحة تحبيسها، ثم في مرحلة لاحقة- غير معروفة على وجه التحديد- عُرفت بالمدرسة "البُوعِنَانِيّة"، وهو الاسم الي تردد كثيرًا في حَوَالات الأحباس الخاصة بمدينة فاس، التي ترجع إلى العصرين السَّعْدِيّ والعَلَوِيّ اللاحقين، إضافة إلى بعض المُسمَّيات الأخرى، مثل: "مدرسة أبو عِنان"، "العِنانية"، "المتوكلية العِنانية"، "مدرسة الطالعة"[٥].

أيضًا، أفادت لوحة التحبيس الخاصة بالمدرسة البُوعِنانِيّة، سبب إنشائها، وبعض خصائصها التي اختُصت بها دون غيرها من المدارس خلال ذلك العصر، في قوله: (المؤسسة على تقوى من الله ورضوان المُعَدَّة لتدريس العِلْم وإقراء القُرءان المُفضَّلة بإقامة فرض الجُمُعة المخصوصة بالمرافق الشاملة والمحاسن المستبدَعة). وبهذا يتبين الدور الوظيفي المزدوج لهذه المدرسة، حيث كانت مدرسةً لتعليم العلوم، وجامعًا لأداء صلاة الجُمُعة- مع الفروض الخمسة- في الوقت ذاته، وتلك مَيْزة لم تشهدها أي مدرسة أخرى من المدارس خلال العصر المَرِينِيّ، وربما كان ذلك- أي هذا الدوْر الوظيفي المزدوج- تحت تأثير بعض المدارس المَشْرِقِيّة في مِصر وبلاد الشام، خلال العصر المملوكي (٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠- ١٥١٧م)، حيث كان بعضها يَجمع بين وظيفتي التدريس وصلاة الجُمُعة، كما هو الحال- على سبيل المثال- بمدرسة وجامع السُّلطان حَسَن في مدينة القاهرة (٧٥٧- ٧٦٤هـ/ ١٣٥٦- ١٣٦٢م)، الأمر الذي ترتب عليه اختصاص المدرسة البُوعِنانِيّة- حسبما صرّحت به لوحة التحبيس- ببعض الملاحق والمرافق الأخرى، المرتبطة بوظيفة المسجد الجامع، مُمَثّلة في كل من الصومعة (المئذنة) للنداء، بيت المنبر، والمنبر للخُطْبة، بيت الخطيب لنُزُلِه واستراحته، وأخيرًا، دار الوضوء الكبرى، المنفصلة عن عمارة المدرسة- بالجهة الشمالية الغربية منها- لأعمال الطهارة والوضوء.

إلى جانب ذلك، فقد أشارت لوحة التحبيس إلى وظيفة أخرى- إضافة إلى تدريس العلوم وصلاة الجُمُعة- أُنِيطت بهذه المدرسة، وذلك في قوله: (وإقراء القرءان). بما يعني أن هذا كان وظيفيًا ثالثًا، اضطلعت به هذه المدرسة، وهذا ما يمكن تأكيده اعتمادًا على ما وَرَد في لوحة التَّحْبِيس ذاتها، فضلًا عن الشاهد المادي المعماري

---

[١] ابن الأحمر: ***روضة النسرين في دولة بني مرين***، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م، ص٣٧.

[٢] ابن الأحمر: ***روضة النسرين***، ص٣٧.

[٣] راشد (رامي): ***عمارة المساجد بمدينة فاس بالمغرب الأقصى في عصر بني مرين ٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٤٦٤م: دراسة آثارية معمارية فنية، دكتوراة***، كلية الآثار، جامعة القاهرة، قسم الآثار الإسلامية، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م، ص١٤٠.

[٤] تجدر الإشارة إلى أن الزاوية العُظمى، التي ابتناها السلطان أبو عنان بدار المُلك "فاس الجديد"، على غدير الحِمص، عُرفت كذلك في عهده باسم الزاوية "المتوكلية". النميري: ***فيض العباب***، ص٢٠٦.

[٥] انظر على سبيل المثال: حوالة أحباس فاس، رقم (١٧٧)، ورقات ١٦٨، ١٧٣، ٢٥٨.، حوالة أحباس فاس، رقم (١٦٦)، ورقات ١٧١، ١٩٥.، حوالة أحباس فاس، رقم (١٧٣)، ورقة ٣٤٤.، حوالة أحباس فاس والقرويين، رقم (١١٣)، ورقة ١٣٦.، حوالة الأحباس المارستانية بفاس، رقم (١٨٢)، ورقة ٥٧.، حوالة أحباس القرويين بفاس، رقم (١٣٥)، ورقة ١٠٢.

بها، فقد وَرَد بلوحة التحبيس في سياق الحديث عن أوجه مصارف عوائد الأحباس المحبسة عليها، ما نصه: (ومُرَتَّبات المُقْرِئين). وهذا تصريح بأنه كان ثمّ مُقرئين مُرَتَّبِين لقراءة القرءان بهذه المدرسة منذ تأسيسها، وقوفًا على رغبة مؤسسها السلطان أبي عِنان فارس. أما الشاهد المعماري، فهو ذلك المُلحق المعروف بـ "مَجْلِس الأُسْبُوع"، المُطِلّ– من الطابق العُلْوي– على البَلاط الثاني من بيت الصلاة، بالجهة الغربية من الجامع، وقد أفاد ابن غازي– في سياق حديثه عن إحداث "مَجْلِس الأُسبوع" بالجامع الأعظم من حاضرة مِكْناس في عهد الأمير أبي زكريا الوَطَّاسِيّ– سبب تسميته بهذا الاسم، لكون القُرَّاء كانوا يَخْتِمون فيه القرءان مَرّة في كل أسبوع[١]، وبهذا يُمكن القول أن ذلك الملحق المعماري– مع اختصاص المدرسة البُوعِنَانِيّة به دون غيرها من المدارس المَرِينِيّة– كان الأول من نوعه في العمارة الدينية المغربية، بحيث لا نجد له نماذج أخرى سابقة، كما ترك أثره جليًا، بعدما أصبح أحد الملاحق المعمارية التي تم إلحاقها ببعض المساجد الجامعة، خلال العصور التالية[٢].

من بين المُعطيات التاريخية والحضارية المهمة التي أفادت بها لوحة التحبيس الخاصة بالمدرسة البُوعِنانِيّة، تلك الألقاب والنعوت المتعددة، في حق مؤسسها السلطان أبي عِنان فارس، وهي: (مولانا الخليفة الإمام حسنة الأيام وناصر الإسلام المجاهد في سبيل الله المظفر بمعونة الله العالِم العامل الصالح العادل القانت الأوّاب صاحب الحَرْب والمِحْراب أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين المتوكل على الله أبو عِنان فارس).

الواقع أن تلك الألقاب الجامعة– التي يطول المقال في الحديث عنها– ذات بُعدين ديني أو سياسي، أو كلاهما معًا، إضفاءً لمزيد من الشرعية في السُّلطة والحُكْم، ومن جهة أخرى، نجد فيها تفصيلًا يؤكد أَهْلِيّته لتلك الشرعية، فمنها ما يُشير إلى شجاعة أبي عِنان في الحرب[٣]، كما أن منها ما يُفيد ديانته وتقواه، فضلًا عن عِلْمه وعدله[٤]، هذا بالإضافة إلى لقبي (الخليفة)[٥]، (الإمام)، وكلاهما يحمل بُعدًا سياسيًا ودينيًا في الوقت ذاته، وكما يُقرّر ابن خلدون، فإن كلا اللقبين مترادفين لمعنى وهدف واحد، هو أن القائم بهما، نائب عن صاحب الشريعة– محمد صلّ الله عليه وسلم– في حفظ الدين وسياسة الدنيا، فأما تسميته إمامًا، فتشبهًا بإمام الصلاة في اتباعه والاقتداء به، ولهذا يُقال الإمامة الكبرى، وأما تسميته خليفة، فلكونه يَخْلُف النبي في أمته، فيقال خليفة بإطلاق، وخليفة رسول الله[٦].

---

[١] ابن غازي (أبو عبد الله): ***الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون***، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م ، ص٣٩.

[٢] انظر: راشد: ***عمارة المساجد بمدينة فاس***. ص٤١٧.

[٣] هذا ما يؤكده ابن الأحمر في ترجمته له بقوله: (وكان فارسًا شهمًا شجاعًا بطلًا مجربًا يقوم في الحرب مقام جنده). ابن الأحمر: *روضة النسرين*. ص٣٨.

[٤] جاء عند ابن الأحمر في ترجمته: (... وكان فقيهًا يناظر العلماء الجِلَّة فيصيب ويخطئهم، ومعرفته بالفقه تامة، وكان عارفًا بالمنطق وأصول الدين،...، وكان حافظًا للقرآن، عارفًا بناسخه ومنسوخه، كثير التمثل بآيه). ابن الأحمر: ***روضة النسرين***، ص٣٨.

[٥] يشير البعض إلى أن أبا عنان كان ثاني من تلقب بلقب الخليفة من حكّام البيت المريني بعد أبي الربيع سليمان (٧٠٨–٧١٠هـ/ ١٣٠٨– ١٣١٠م). القبلي (محمد): ***مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين***، ضمن (مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط)، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧م.، ص٨٣، ٨٩، ٩٢.

[٦] ابن خلدون: ***المقدمة***. جـ١، ص٣٣٤– ٣٣٥.

بالنظر إلى الشروط التي ذكرها ابن خلدون لحامل هذين اللقبين وصاحب ذلك المنصب، وهي: (العِلْم، العدالة، الكفاية، سلامة الحواس والأعضاء)[١]، نجد أن باقي الألقاب الأخرى التي اقترنت بها تعكسها بقوة، ففيما يتعلق بشرط العِلْم، نجد لقب: (العالِم)، وفيما يتعلق بشرط العدالة، نجد لقب: (العادل)، وفيما يتعلق بشرط الكفاية، نجد عدة ألقاب هي: (ناصر الإسلام المجاهد في سبيل الله... صاحب الحرب والمحراب... المجاهد في سبيل رب العالمين)، وأخيرًا، فيما يخص شرط سلامة الحواس والأعضاء نجد لقب: (العامِل)، وهكذا تعكس كل هذه الألقاب الواردة بلوحة تحبيس هذه المدرسة، في حق مؤسسها أبي عِنان، مدى الحرص على تحقيق شروط هذا المنصب، تأكيدًا على دعم شرعيته في السُّلطة والحُكم.

لقد تعددت عُيون الأحباس التي أفادت بها لوحة تحبيس المدرسة البُوعِنانِيّة بحاضرة فاس الإدريسية، حسبما وَرَد بما نصه: (وحبس أيده الله على هذه المدرسة إرفاقًا لطلبة العلم وإرفادًا وإعانة لهم على طلبه وإسعادًا جميع ما ينقسم من الرِّباع وذلك الحمّام المعروف بحمّام الشَّطَّارة والدُّوَيْرة المتصلة به من حقوقه بأعلى حلق النَّعام قِبليّ المدرسة المباركة والرّحَى المتصلة بالمدرسة من جهة الشرق والرّحى الثانية المعروفة برحى الحطَّابين التي بها مَعِدَة الماء المجلوب منها الماء إلى المدرسة ودار الوضوء بها والفُرْن الذي بالزنقة الفاصلة بينه وبين المدرسة والرواءان الاثنان أحدهما بالزنقة جنب الفُرن وتتصل بالحوانيت الجُدد المُحَبَّسة على المدرسة والآخر بزنقة ابن نوّار وتتصل بدار الوضوء المذكورة وأربع وسبعون حانوتًا كلها بالقرب من المدرسة بحقوق ذلك كله ومنافعه أجمعها).

إن تنوع عيون تلك الأحباس مع كثرتها، أحد المؤشرات المُهمّة، الدالّة على حالة الانتعاش والرخاء الاقتصادي، الذي شهدته بلاد المغرب الأقصى، في عهد السلطان أبي عنان فارس (٧٤٩- ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨- ١٣٥٧م)[٢]، كما تدل- من جهة أخرى- على أهمية تلك المنشأة المُحَبَّس عليها تلك الأحباس الوافرة، سواء فيما يتعلق بأدوارها الوظيفية الدينية والعلمية، أو ما يخص عمارتها ومرافقها المتعددة، وهو ما أشارت إليه لوحة التحبيس صراحة، بقوله: (ليُصرَف فوائده في إصلاح المدرسة ومُرتَّبات المُقْرِئين والطلبة والقَوَمَة بها). الأمر الذي جعل الرحالة ابن بطوطة يَشِيد بتلك المدرسة- ضمن حديثه عن مآثر مخدومه السلطان أبي عِنان- بقوله: (وعمارة المدرسة الكبرى، بالموضع المعروف بالقصر مما يجاور قَصَبَة فاس، ولا نظير لها في المعمور اتساعًا وحسنًا وإبداعًا وكثرة ماء وحُسْن وَضْع، ولم أَرَ في مدارس الشام ومِصر والعراق وخُرَسان ما يُشْبِهها)[٣].

أفادت كذلك لوحة تحبيس المدرسة البُوعِنانِيّة بفاس، تاريخ البِدْء والانتهاء من تأسيس هذه المأثرة الشامخة، حسبما وَرَد بما نصه: (وكان ابتداء بنائها في الثامن والعشرين لشهر رمضان المعظم عام إحدى وخمسين وسبعمائة والفراغ منه في آخر شعبان المكرم عام ستة وخمسين وسبعمائة). وهذا ما لم تُشر إليه

[١] ابن خلدون: ***المقدمة***. جـ١، ص٣٣٩.

[٢] انظر كذلك: الماحي (علي): ***المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني***، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.، ص١٧١- ١٩٢.

[٣] ابن بطوطة: ***رحلة ابن بطوطة***، مج٤، ص٢٠٢.

النقوش التسجيلية الأخرى، التي لا تزال باقية بعديد من المواضع داخل وخارج بناية المدرسة وملحقاتها، فضلًا عن المصادر التاريخية المعاصرة[١]، الأمر الذي يتأكد من خلاله الأهمية التاريخية لهذه النقائش الوقفية.

أيضًا، من بين المعطيات التاريخية والحضارية المُهمّة، التي أفادت بها لوحة تحبيس المدرسة البُوعِنانِيّة، اسم ناظر مؤسسة الأحباس بحاضرة فاس، خلال عهد أبي عِنان فارس، الذي على يديه تم بناء المدرسة، في قوله: (وكان بناؤها على يدي الناظر في الحُبُس بحضرة فاس حرسها الله تعالى أبي الحسين بن أحمد بن الأشقر وفقه الله تعالى). بما يحمل على القول بأن تلك المدرسة- العُظْمى- بُنيت في الأصل من أموال الأحَبْاس، ومن جهة أخرى، تفيد أنه كان هنالك خُطة إدارية لمؤسسة الأحباس، تُعرف بخُطة "ناظر الأحَبْاس"[٢]، مع ما كان يتمتع به أولئك النظّار من منزلة ومكانة عالية، مكّنت من تخليد أسمائهم، جنبًا إلى جنب مع أسماء ونعوت الحكّام والسلاطين المُشيِّدين لتلك العمائر الباقية، وتكمن أهمية لوحة تحبيس المدرسة البُوعِنانِيّة، في كونها أشارت صراحة إلى اسم ناظر "مؤسسة الأحباس" بمدينة فاس، في عهد أبي عنان فارس (٧٤٩- ٧٥٩هـ/ ١٣٤٨- ١٣٥٧م)، وهو: (أبي الحسين بن أحمد بن الأشقر)، الذي كان متوليًا في الوقت ذاته خطة "ناظر الأحباس" في جامع القرويين[٣].

خاتمة:

في ضوء ما سبق ذكره، تتبين الأهمية التاريخية والحضارية الكبرى، لتلك اللوحات التَّحْبيسية، الباقية بعمائر بلاد المغرب الأقصى خلال العصر المَرِينِيّ (٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩- ١٤٦٤م)، إذ هي بمثابة وثائق مادية لا شك فيها، تعكس عديدًا من الجوانب الحضارية للبلاد في ذلك العصر، يأتي على رأسها الجانب الديني، وبما كانت تضطلع به الأحباس ومؤسستها من دَوْر حيوي، بالغ الأهمية في تقدم وازدهار النشاط العمراني الدينيّ والخدميّ، كما تَكْمُن أهميتها في مُعطياتها التاريخية حول حكّام هذا العصر المَرِينِيّ، بما شيَّدوه من عمائر ومآثر دُرِسَت أو لا تزال قائمة، وبما اشتملت عليه من ألقاب ونعوت ذات دلالات سياسية أو دينية أو كلاهما معًا، ليس بالإمكان الوقوف عليها تفصيلًا في غير تلك النقائش الوقفية، هذا فضلًا عن الإفادات المهمة حول بعض الهيئات والخُطط الإدارية، ومن كان يُمَثِّلها خلال عهد كل حاكم منهم[٤]، الأمر الذي يدفع في النهاية إلى توجيه نظر وعناية الباحثين والمتخصصين للاهتمام بدراسة هذه اللوحات الحُبُسِيّة، لقراءة تاريخ ذلك العصر بصورة أكثر دقة وتفصيلًا، ولاستخلاص المزيد من المُعطيات الحضارية في مختلف الجوانب.

---

[١] ابن بطوطة: ***رحلة ابن بطوطة***. مج٤، ص٢٠٢.

[٢] انظر: الونشريسي: ***المعيار المعرب***. جـ٧، ص١٣٤- ١٣٥.

[٣] الونشريسي: ***المعيار المعرب***. جـ٧، صـ١٧٢- ١٧٣.

[٤] حيث يُمكن الإشارة أيضًا- على سبيل المثال- إلى خُطَّة الحِجَابة، في عهد الأمير عثمان بن أحمد بن أبي سالم بن أبي الحسن (٨٠٠- ٨٢٣هـ/ ١٣٩٨- ١٤٢٠م)، والذي كان يتولاها له حينًا، الحاجب أبو محمد عبد الله الطَّرِيفِيّ، حسبما نَصَّت عليه لوحة تحبيس مسجد للّا غريبة. انظر:
Bel: Inscriptions Arabes. P.65.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: المصادر:

- حوالة أحباس فاس، تحت رقم (١٦٦). مخطوط، ميكروفيلم، المكتبة الوطنية، الرباط، قسم الوثائق.
- حوالة أحباس فاس، تحت رقم (١٧٣). مخطوط، ميكروفيلم، المكتبة الوطنية، الرباط، قسم الوثائق.
- حوالة أحباس فاس، تحت رقم (١٧٧). مخطوط، ميكروفيلم، المكتبة الوطنية، الرباط، قسم الوثائق.
- حوالة أحباس فاس والقرويين، تحت رقم (١١٣). مخطوط، ميكروفيلم، المكتبة الوطنية، الرباط، قسم الوثائق.
- حوالة أحباس القرويين بفاس، تحت رقم (١٣٥). مخطوط، ميكروفيلم، المكتبة الوطنية، الرباط، قسم الوثائق.
- حوالة الأحباس المارستانية بفاس، تحت رقم (١٨٢). مخطوط، ميكروفيلم، المكتبة الوطنية، الرباط، قسم الوثائق.

ثانيًا: المصادر المطبوعة.

- ابن أبي زرع (أبو الحسن بن علي بن محمد ت ٧٢٦هـ): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م.
- ابن الأحمر (أبو الوليد إسماعيل بن يوسف ت ٨٠٧هـ): روضة النسرين في دولة بني مرين. المطبعة الملكية، الرباط، ط٢، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
- ابن بطوطة (أبي عبد الله محمد بن عبد الله ت ٧٧٩هـ): رحلة ابن بطوطة. مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة دار المعارف الجديدة، الرباط، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٧م.
- ابن خلدون (أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ): المقدمة. الدار العربية للكتاب، القيروان للنشر، تونس، ط١، ٢٠٠٦م.
- ابن خلدون (أبو زيد ولي الدين عبد الرحمن بن محمد ت ٨٠٨هـ): كتاب العبر وديوان المبتدا والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٢م.
- ابن غازي (أبو عبد الله محمد ت ٩١٠هـ): الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون، المطبعة الملكية، الرباط، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م.
- التلمساني (محمد ابن مرزوق ٨٤٢هـ): المسند الصحيح الحسن في مآثر ومحاسن مولانا الإمام أبي الحسن، دار الأمان، الرباط، ط١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.
- لسان الدين ابن الخطيب (أبو عبد الله محمد لن عبد الله ت ٧٧٦هـ): معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٢م.
- النميري (ابراهيم بن عبدالله ابن الحاجت ت ٧٦٨هـ): فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسنطينة والزاب، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٠م.
- الوزان (الحسن بن محمد ت ٩٦٠هـ): وصف أفريقيا، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٣م.
- الونشريسي (أبو العباس أحمد بن يحيى ت ٩١٤هـ): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، الرباط، المملكة المغربية، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م.

ثالثاً: المراجع العربية:

- عثمان إسماعيل: تاريخ العمارة الإسلامية والفنون التطبيقية بالمغرب الأقصى. مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ط١، ١٩٩٣م.

- رامي ربيع عبد الجواد راشد: عمارة المساجد بمدينة فاس بالمغرب الأقصى في عصر بني مرين ٦٦٨- ٨٦٩هـ/ ١٢٦٩-١٤٦٤م: دراسة آثارية معمارية فنية. رسالة دكتوراة (مرقونة)، كلية الآثار، جامعة القاهرة، قسم الآثار الإسلامية، ١٤٣٨هـ/ ٢٠١٦م.
- رامي ربيع عبد الجواد راشد: خصائص الفن المريني في ضوء زخارف ونقوش الجامع الكبير بمدينة تازة ٦٩٠ ٦٩١هـ/ ١٢٩٠- ١٢٩١م. مجلة "البحوث والدراسات الأثرية "، مركز البحوث والدراسات الأثرية، جامعة المنيا، جمهورية مصر العربية، العدد٥، سبتمبر ٢٠١٩م.
- رزقي الشرقي: الكتابات الوقفية بالمعالم الدينية بتلمسان مصدر جديد لتوثيق المسح العقاري بالمدينة وضواحيها. مجلة الثقافة، وزارة الثقافة بالجزائر، عدد١٦، أكتوبر ٢٠٠٧م.
- محمد القبلي: مساهمة في تاريخ التمهيد لظهور دولة السعديين. ضمن (مراجعات حول المجتمع والثقافة بالمغرب الوسيط)، دار توبقال، الدار البيضاء، ط١، ١٩٨٧م.
- علي حامد الماحي: المغرب في عصر السلطان أبي عنان المريني. دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٦م.

رابعاً:المراجع الاجنبية:

- Bel (M.Alfred): Inscriptions Arabes de Fès . Paris, 1919.

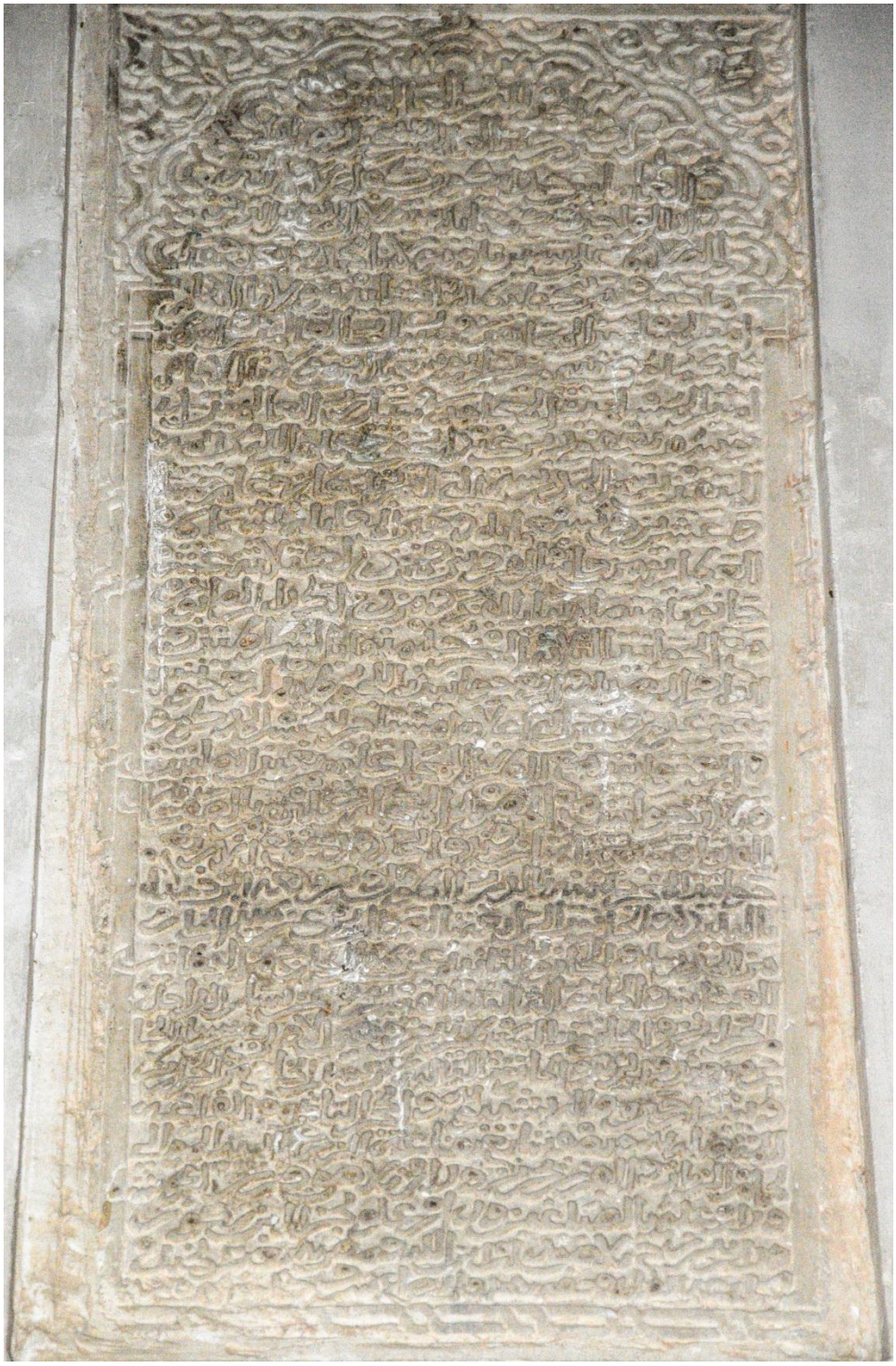

لوحة (١): لوحة تحبيس مدرسة العطارين بفاس البالي.

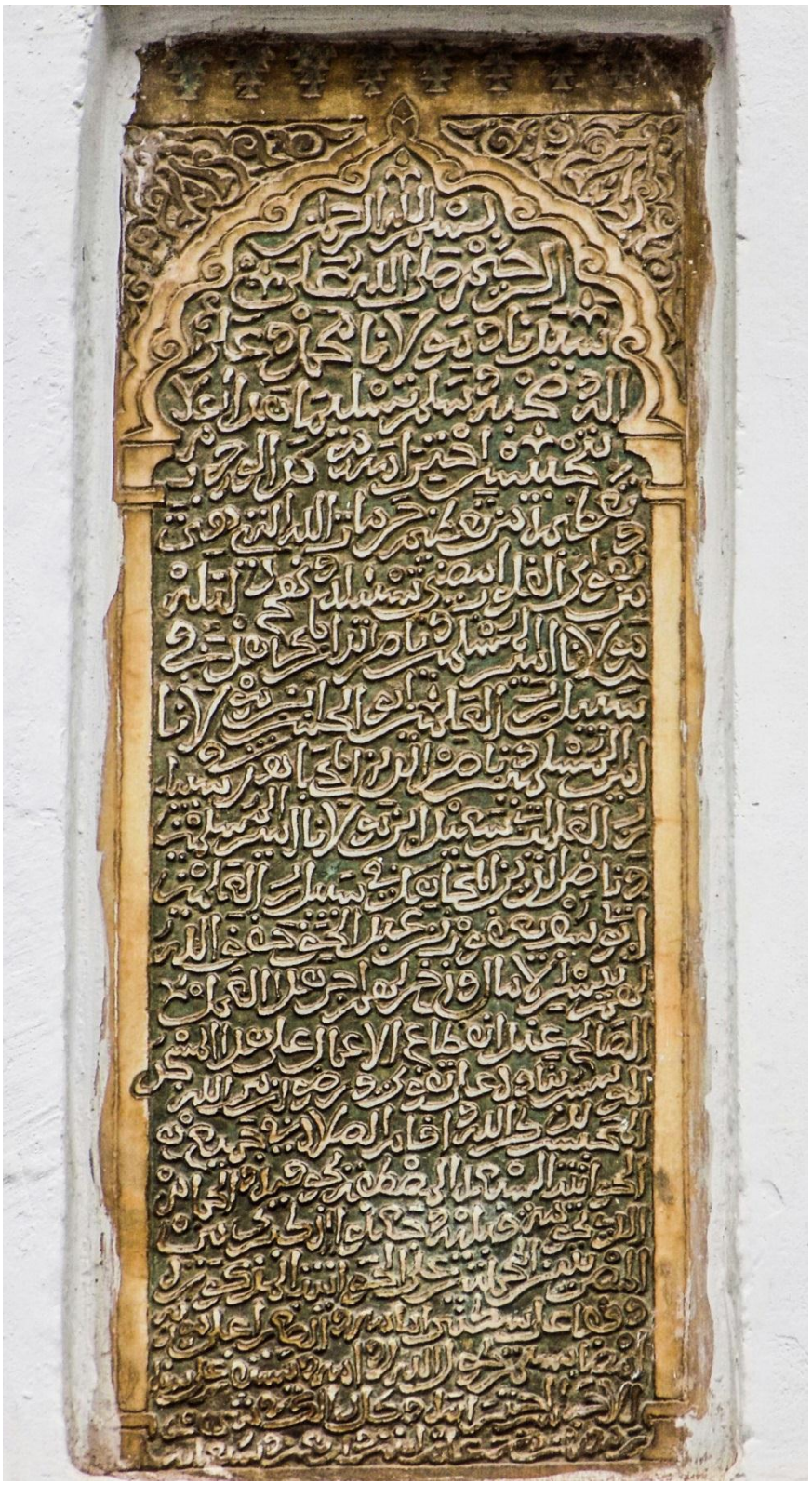

لوحة (٢): لوحة تحبيس مسجد أبي الحسن بفاس البالي.

لوحة (٣): لوحة تحبيس مدرسة أبي الحسن في سلا.

لوحة (٤): لوحة تحبيس زاوية بمدينة تازة.

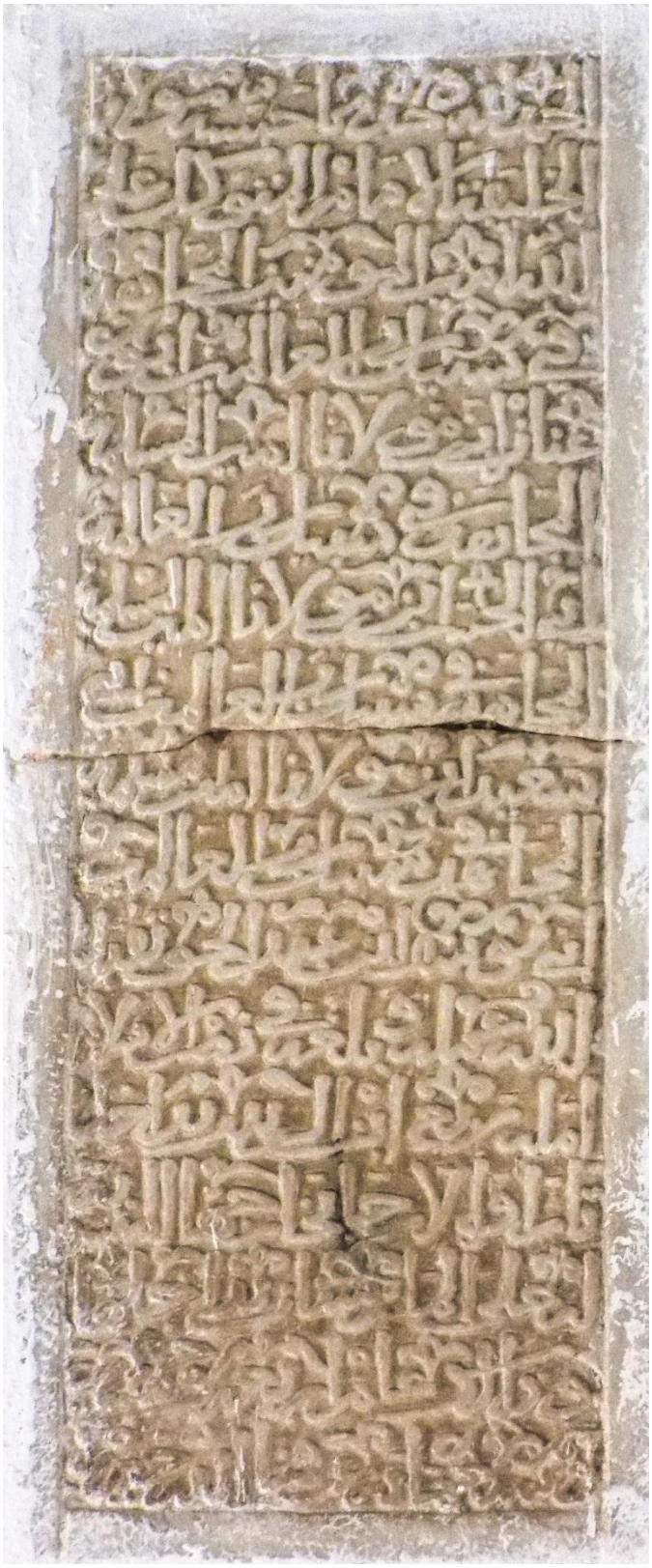

لوحة (٥): لوحة تحبيس بيمارستان في مدينة تازة.

لوحة (٦): لوحة تحبيس المدرسة البوعنانية بفاس البالي.

لوحة (٧): لوحة تحبيس مجلس الأسبوع بالجامع الأعظم من فاس الجديد.

لوحة (٨): لوحة تحبيس مسجد للّا غريبة بفاس الجديد.